العرب قبل التاريخ

لحضرة المؤرخ المدقق جرجي افندي يني

نسأل القرّاء الالباء الاعضاء عمّا انبناهُ من التأخير في اثبات تتمة بحثنا الذي بدأنا بهِ في الجزء السابع من السنة الثالثة عشرة للمقتطف الاغر تحت عنوان هذه المقالة لان اشغالنا منذ يوشك بتكملة تأليف كتابنا الكبير في تاريخ الشرق وما دهم بلادنا السوريّة في تضاعيف المدة من الداء الوبيل حال دون الاستمرار على العمل اما الآن وقد سنحت الفرصة فنحن منجزون الوعد شاكرين لاهل النجدة الاديبة ارتضاءهم عن النبذة الاولى حاسبين تنضل العلماء بقبولها واسداء الشكر عليها منة قلدونا فخرها فنقول وبالله المستعان

ان معظم الامم السالفة تدرّجت من العصر الظرري الى الشبهاني فالحديدي اما الامة العربيّة فليس بعيدًا ان تكون قد جرت على حكم الاقليّة فمرّت على العصرين الشبهاني والحديدي في وقت واحد معًا او في وقتين متقاربين او كان احدهما في قبيلة والآخر في اخرى تجاورها وهذا الرأي مستدّ الى الادلة الآتية

اولاً قلة الاسماء الصفريّة في المواد والادوات العربيّة مما يدل على ندرة المسميات بها بين القبائل

ثانيًا ان الصفر مركّبٌ والعرب لم يكونوا صنّاعًا ليركبوهُ وليس عندهم شيء من المواد التي تركب منها وانما استجلبوهُ من الجوار غيرانهُ ورد في بعض المؤلفات ان النحاس كان يستخرج من عمان لكن على قلةٍ تكاد لا تُذكر

ثالثًا ان كلمة صفر تقرب كثيرًا من زابار وهي اسم هذا المركب بلغة قدماء الكلدان ومعلومٌ ان اولئك يسكنون بلادًا ليس فيها من هذا المزيج ولكنهم ربما كانوا يستجلبونهُ من ارمينيا حيث معدن النحاس الاصفر وناهيك بان سكان ارزروم وطوقات كانوا يحسنون اصطناع الادوات النحاسيّة ويتجرون بها مع اهل الجوار واما القصدير فكان يجيء بهِ الفينيقيون والمصريون من القوقاس والهند وبلاد الانكليز

رابعًا اذا صدق الرأي السابق فالكلمة صفر مستعارة من الكلدانيّة والاّ فهي اسمٌ اطلقهُ العرب على هذا المزيج مأخوذ من لونهِ الاصفر او تسمية لهُ باحد اسماء الذهب

خامسًا ان في اللغة اسمًا لاجود ضروب النحاس يدل على مصدرهِ وهو القُبرس ومن

عرف ان قوافل العرب كانت تجوب القفار وتنزل في ريكولرا اي العريش فيباع الوارد من القطر العربي ويشترى وارد سائر البلاد ادرك ان قبرس كانت تجر مع القوم بمعدنها ولا غرو فقد اشتهرت الجزيرة به ومن اسمه الافرنجي اشتق اسمها في معظم اللغات الاوربية

سادسًا لانه ورد في بعض مواد اللغة اسم لشيئين احدهما يدل على العصر الظرري والآخر على الحديدي كقولك الوقف مثلاً اسم لاطار الترس قرنًا كان او حديدًا وبما انه لا توسط بينهما للصفر يُحسب ذلك دليلاً على رأينا

سابعًا ان معظم اسماء الادوات الحديدية مستفادٌ من الطبيعة رأسًا فلو كان عصرهُ مسبوقًا بالصفري لاستفاد الاسماء منهُ وبذلك كلهِ يتأيد الراي بوحدة العصرين زمانًا

على انا نرى وجوبًا لذكر بعض ما عثرنا عليهِ من اسماء الادوات الشبهانية وما نحسبهُ سببًا لتسميتها فنقول

لعلَّ القوم لما رأوا الصفر شبيهًا بالذهب او بنبات شائك اسمهُ الشبه سموهُ كذلك . ومن اسمائهِ ايضًا الصرفان وقد ورد في قول الزباء

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلاً تحمل ام حديدا
ام صرفانًا باردًا شديدا ام الرجال جثمًا قعودا

ويغلب فيهِ ان يكون ماخوذًا من معنى الصرف او التحويل اذا اعتبرت المادة مزيجًا او لعلهُ من الصرفان المراد بهِ الثمر الرزين الصلب المضاغ الذي كان يُدخر لمؤونة الشتاء كما ثبت من المثل القائل صرفانة ربيعية تصرم بالصيف وتؤكل بالشتية . او من الصريف للشجر اليابس

ومنها الصاد وفيهِ يقول حسان بن ثابت

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا قنابل دهمًا في المباءة هبمًا

وهي مأخوذة من الصيداء مؤنث الاصيد للاحجار التي تعمل منها القدور كأن القوم كانوا في عصرهم الظرري يستعملون تلك القدور الحجرية فلما وجدوا الصفر واصطنعوا منهُ القدور سموا ذلك المعدن صادًا اشتقاقًا من تلك الحجارة

وقد دلَّت الابحاث الاخيرة على ان المصريين كانوا يتخذون ادواتهم من الصفر الاَّ على قلةٍ وانهم لبثوا على ذلك زمنًا مديدًا حتَّى ساد البطالسة عليهم ولهذا كان يسهل على العرب استيراد كثير من الادوات الشبهانية من القطر المصري لما بين البلدين من التواصل في التجارة

واما الحديد فقد تعدّدت الادلة على جدة اسمائهِ فمن ذلك انهم رأوهُ اسود فسموهُ سحمًا والسحم السواد والاسحم القرن والسحم شجر صلب الخشب وربما كانوا يصطنعون ادواتهم منهُ والسنارة تدل على ذلك باكثر بيانٍ اذ هي في الاصل اسم جلدةٍ كانت توضع في انف البعير بمنزلة الحكمة للفرس وانها خيط يشد على خطامهِ ويدار عليهِ وتجعل بقيتهُ زمامًا ثم صار اسمًا لحديدة تشد على الخطام وربما اشتقت منها السنيرة لقلادة فيها عرى من ذهبٍ وفضةٍ ومثل هذا المسمار فانهُ مستفادٌ من السُمُر لشجر الغضاه والشوكة المصريّة والسلك والسكيّ للمسمار مأخوذان من السلك لحجر العقرب كنايةً عن ضيقهِ او من السلك للبئر الضيقة الخرق وشحذ السكين احدّها مستعارة من شحذت المعدة اذا تقوّت للطعام والصداء مأخوذ من الصداءة للشقرة الضاربة الى السواد او هي سواد مشرب احمرارًا وتلك من شيات الماعز والخيل فاستعملوها لوسخ الحديد

ويغلب على الظن ان مصدر الحديد بلاد الهند او سواحل الخليج العجمي والقول في ذلك مستندٌ الى ما يأتي

اولاً ان من اسماء الحديد الفولاذ وهو مأخوذ عن فولاد الفارسيّة ويُقال للحداد القين مشتقة من قان والفعل برمتهِ مع اشتقاقهِ فارسي الاصل بدليل ان من اسماء الحديد في الفارسيّة سابور قان

ثانيًا ان في المثل المعروف ودَهدُرَين سعد القين حكايةً تُحسب في ذاتها دليلاً كافيًا على مرادنا ألا وهي ان قينًا او حدادًا اعجميًا اسمهُ سعد كان يدور في اليمن يتعاطى حرفتهُ فاذا كسد عملهُ طاف على الناس ونادى بالفارسية ده بدرود برید وداعهم ايهامًا لهم على قرب سفرهِ فيتهافتون على تشغيلهِ فاصبح شأنهُ معروفًا حتّى قالوا المثل في بطلان امرهِ وظهور كذبهِ

ثالثًا ان من اسماء السيوف المهند والهندي والهندواني ونسبة صنعها الى الاهاند لا تخفى على احد

رابعًا ما لبث صنعها ان علق بالبلاد العربيّة في اقرب المواضع الى مصادرها وحسبك اننا عرفنا الرماح الخطيّة ذائعة الصيت على انها منسوبة لمدينة خط وهي مرفأ البحرين وقبل لخط هجر اذ كانت تباع بها واردة من الهند

خامسًا ورد انهُ كان في خط هجر رجلٌ اسمهُ سمهر وامرأتهُ ردينة وكلاهما يصنعان رماحًا تنسب اليهما فيقال لها السمهريّة والردينيّة

سادسًا اتصلت الصناعة بالمشارف وهي قرى تدنو من الريف فتسمت رماحها بالمشرفيّة

سابعًا اطلق العرب كلمة الخطاف على كل حديدة حجناء اخذًا عن الخطاف للطائر الاسود الذي يسمونهُ زوار الهند كأنهم ارادوا في ذلك المشاركة بين الاسمين للدلالة على ورود الحديد من تلك الديار

ثامنًا ان كثيرًا من اسماء آلات الحداد اعجميّة الاصل وحسبك السندان لما يُطرَق عليهِ فانها في الفارسيّة سندان ويؤخذ عن محيط المحيط ان الغطّاس للمطرقة الضخمة ربما كانت افرنجيّة او سريانيّة وكذلك نذكر الكار والكير والكور والبذيار وامثالها

بقي علينا ان نبحث في شأن الامة أيّان تدرّجها الى الحضارة عقيب زمنها الظرري وكيف انها شرعت في الارتقاء خطوةً بعد اخرى فنبدأ بالطعام وفيهِ نرى ان القوم اخذوا ينبذون شظف العيش ظهريًا اذ اهتدوا الى طرق جديدة فتحت لهم ابواب التأنق في المآكل . اعتبر ذلك بما وردعن الخزيفة من انها شحمة تذاب ويصب عليها ماء ثم يُطرَح عليهِ دقيق فيُلبك بهِ وكذلك قيل عن الريكة انها تُتخذ من برّ وتمر وسمن وليس خفيًّا ان هذا الطعام وامثالهُ يحتاج في المعالجة الى ادوات لا تتيسر الاّ لمن كان قد ارتقى بعض الشيء من الحالة الظرريّة غيرانهُ لم يمضِ على القوم زمنٌ طويل حتّى صاروا الى رغد العيش وانق الطعام اذ تعددت عندهم اسماء الولائم والمآكل ومن ثمّ اخذوا عن جيرانهم من الفرس السكباج والدوغباج والنارباج وشواء المدير باج والاسبيداج والاجيراج والطباهج والجرذباج والذورق والهلام والخامير والخوذاب والدماورد والفالوذج والجوزينج واللوزينج والتقريخ والجلاّب والسكنجبين والمجلنجين والميسبة

واما الشراب فان العرب بدأوا باتخاذهِ من البسر وسموهُ فضيخًا وتلك كلمة مستعارة من فضخ الثمر اذا شدخهُ ليُعصر وقد ورد ان القوم كانوا يضعون البسر في اناء فيصبون عليهِ الماء الحار حتّى تستخرج حلاوتهُ ثم يُغلى ويشتد وكأن هذا لم يكن في اصلهِ من اختراع العرب ولئن كان بسيطًا لانهُ ورد ان الباذق من اسماء العصير اذا طبخ بعض الشيء كالفضيخ والكلمة باذق اعجميّة والقائل بعجميتها هو ابو حنيفة الدينوري ولعلّ القوم اقتبسوها من العراق حيث كان سكانهُ منذ الزمن القديم يعصرون من تمر النخيل شرابًا على ما حقق المؤرخون ثم ان القوم عصروا التمر وسموا العصارة المختمرة منهُ سكرًا وتدرجوا في اصطناع الشراب على انواعهِ فكانت السكركة والمذرة من الذرة والجعة من الشعير والقنديد من القند والصهباء من العنب والنبيذ من الزبيب

فتبين من هذا ان اصطناع الشراب كان على ضربين نقيعاً وعصيراً يؤيد ذلك ما ورد في الكليات من قولهِ "وكل شراب مغطٍ للعقل سواء كان عصيراً ام نقيعاً مطبوخاً كان او نيّاً فهو خمر اه" وكذلك ما ورد في تفسير كلمة نبيذ من انهُ اسم ما نبذ من عصيرٍ ونحوهِ سمي بهِ لانهُ يُنبذ اي يُترك حتّى يشتد او يلقى في الجرة حتّى يغلي

وأما الآنية فاولها المرجل وكان في بدء امرهِ حجراً ثم اصطنع من نحاس واكبر منهُ الخالقين غيران الكلمة تدل على اصلهِ اليوناني كأنهُ اتصل بالعرب من نزلاء الشام او مصر وكذلك الطنجرة والطنجير اخذوها عن الفرس واما القدر فعربي غيران العرب استعاروا من الفرس الكوز والابريق والطبس والطست والطشت والخوان والطبق والقصعة والسكرجة وغيرها

واما المساكن فلا مشاحة في ان السواد الاعظم من العرب ظلوا سنة الجاهليّة يأوون الخباء لانهُ من صوف الشاء والنجاد لانهُ من وبر الابل والفسطاط لانهُ من شعر المعزى والسرادق لانهما من كرسف (القطن) وذلك عقيب ان اهتدوا الى النسج تمثلاً بالعنكبوت كما قدمنا في الكلام على العصر الظرري او اخذاً عن مجاوريهم

وكأني بالذين سكنوا الجند والكبس (وكلاهما اسم بيت من طين) رأوا ان يزيدوا البناء متانة فاصطنعوا البيت من اللبن وسموهُ قبةً ومن المدر فسموهُ سترةً وليس بعيداً ان يكونوا قد تدرّجوا في اصطناع الصلصال حتّى صيروهُ اجرّاً او انهم اخذوا الصنعة عن جيرانهم سكان العراق والجزيرة او اهل مصر وظن اخذهِ عن الجوار مستند الى الدليل اللغوي لان كلمة اجرّ اعجميّة وقد ذكرها الامام الثعالبي بين المعرّبات عن اليونانيّة وحسبها العلّامة البستاني معرّبة عن الفارسيّة اذ هي فيها اكثر وتعداد اسمائهِ العربيّة دليل شيوعهِ بين القبائل ومثل ذلك القرميد فانهُ منسوب الى اليونانيّة والطوب اسم القرميد بلغة مصر ولعلّ الطابق منهُ ولئن ذكر المحيط انهُ فارسي معرّب

ثم تدرجوا من ذلك الى البناء بالحجر وسموهُ الاقنة او انهم اقتبسوا ذلك من الصوب الفارسي بدليل ما ذكر الامام بن خلدون من ان قبيلةً ساكنةً في نواحي فارس اسمها اميم كانت اول من ابتنى البيوت بالحجارة ناهيك ان العرب كانوا يسمون البناء المسنّم خربشت والكلمة ظاهرة العجمة

ومما يُرى ان البرم مأخوذ من اسم الابرم لنبات ربما بدأ القوم يبرمونهُ ليتخذوا منهُ حبلاً او خيطاً ومثلهُ الفتل لورق نبات ليس منبسطاً لكنهُ يفتل وكذلك الجدل ومنهُ

الجديل للزمام المجدول من ادم وفيه يقول امرؤ القيس

وكشح لطيف كالجديل مخصّر وساق كانبوب السقيّ المذلل

ثم اطلق الجديل على الحبل من ادم او شعر وبعد ذلك تسمى الوشاح جديلاً بدليل قول الشاعر

كأنّ دمقسًا او فروع غمامةٍ على متنها حيث استقرّ جديلها

والظاهر ان الجديل لم يطلق على الوشاح الاّ بعد اذ تدرّج القوم من جدل الخيوط الغليظة الى جديلها دقيقة لتصلح للنسيج غير ان هذا الجدل هو الغزل ويُراد به برم الصوف ونسجه والمفهوم من عبارة لابن خلدون ان فرقة من بني تريد رحلوا الى ارض الجزيرة ونزلوا بلدًا اسمه عبقرة ونسجوا فيه رودًا من الصوف فسموها عبقريّة او تزيدّية

وورد في الصحاح ان عبقر موضعٌ كثير الجن وفي المحيط قولهُ ثم نسبوا اليه كل شيء تعجبوا من حذقهِ او جودة صنعهِ وقوتهِ الخ وان عبقر قرية ثيابها في غاية الحسن والعباقري والعبقري ضرب من البسط فاخرٌ جدًّا فيه اصباغ ونقوش

قلت ولعل العرب اهتدوا في الاصل الى النساجة الساذجة ثم تعلموا من سكان الجزيرة نسج هذه البرود ونقلوها الى امتهم ايّان رجع منهم بعض عشائرهم فتبطنوا العربيّة وما لبثت صناعتهم ان استدقت فاصطنعوا الشف والسابري قيل اخذوا هذا الاخير عن الفرس ونسبوهُ لسابور واما الكتان فقد مرّ بنا انهم عرفوهُ ونسجوا منهُ غليظًا ثم زاولوا النسج فمهروا بهِ واصطنعوا السيب والسيبية وهما اسمان لثقة الكتان الرقيقة بل ربما اقتبسوا التحسين فيهِ عن المصريين لانهُ ورد في كتب محققي التاريخ ان تجار العرب كانوا يجلبون الى مصر كثيرًا من الكتان وان المصريين برعوا في نساجتهِ وحوكهِ بالذهب وزركشهِ والتفنن في صناعتهِ حتّى صار يُحمل من بلدهم الى الاقطار وحتّى اصبح تجار العرب انفسهم يأتون الى بلادهم بما يستبضعون منهُ

واستخدم العرب القطن اذ نسجوا منهُ كثيرًا وكأن بدء معرفتهم بهِ كانت في بلاد اليمن جريًا على سنة معظم الصناعات عند العرب لانهُ ورد ان حمّول موضع باليمن تنسج بهِ الثياب ويسمى نسيجها سحلاً وفيهِ يقول الشاعر

في الآل يخفضها ويرفعها ريعٌ يلوح كأنهُ سحلُ

واما تخصيص السحل بالثوب من القطن فقد قال بهِ الامام الثعالبي اثناء تخصيصهِ اسماء ضروب الثياب وكأنهُ استفاد ذلك مما ورد من ان الرسول كفن في ثلثة اثواب سحولية

كرسف والكرسف هو القطن وتنوعت الوان الانسجة عند القوم فكانوا يلبسون الابيض والاسود والاحمر والاصفر وصباغهم اما بالشرق وهو طين احمر واما بالجساد او البهرمان او الورس او الزبرقان وقيل انهم كانوا يصبغون بلون الشمس اي بصفرتها واغلب ما يتخذون هذه المعائم فتكون المهرّاة افخرها وفيها يقول الشاعر

رأيتك هربت العمامة بعد ما عمرت زمانا حاسرًا لم تعمّم

وزعم الازهري ان المعائم المهرّاة حملت لبلاد العرب من هرات فانكر الثعالبي ذلك ورماهُ بالتعصب لتلك البلدة

وليست هذه المعائم كلها نقل العرب عن مجاوريهم فقد رأينا انهم اخذوا السمور والسنجاب والقاقم والفنك والدلق والخز والديباج والناخج والراختج والسندس والاشرق والبزّ والدمقس واشباهها وذلك من امارات الاعاجم على ما اثبتهُ ائمة اللغة وليس بدعًا ان يكون قد عاق في بعض الاقطار المخضرة شيءٌ من الصناعات المأخوذة عن الجوار

ومن الغني عن البيان ان المتزين من اقصى رغائب الامم في بداوتها وانها لتظل على التماس ضروب الحلى سجاية ازمانها مندرجةً فيها حتّى تبلغ اسمى رقاها وليس العرب الاّ من جملة المتبعين هذه الرغائب الباذلين الوسع في التماسها

وباستقراء الحلى نجد الذّبل اسمًا لعظام دابة بحريّة ربما كانت السلحفاة تصطنع منها الامشاط والاساور بدليل قول جرير

ترى العبس الحولي جونًا بكوعها لها مسكًا من غير عاجٍ ولا ذبلِ

والمسك في هذا البيت بمعنى السوار واستثناء العاج دليل على انهُ كان متخذًا التحلية على انا نعرف ان الفيلة لا توجد في البلاد العربيّة فهو اذًا مستجلبٌ من الهند او من الحبشة وكأني بهم رغبوا فيهِ وكان قليلاً فاتخذوا من الذّبل اي عظام السلحفاة بديلاً مقلدًا واطلقوا عليهِ اسم العاج حتّى اذا كره المسلمون بعد ذلك ان تكون حلاهم من انياب الفيلة استخدموا الذّبل . كل هذا تخمين مصدرهُ القول بانهُ كان لفاطمة (رضه) سوار من عاج والادلة على انها لا تلبس عظام ميتة فهو من الذّبل

والشكل حليّ من لؤلؤ او فضة يشبه بعضهُ بعضًا ولعلّهُ مأخوذ من اسم نبات متلون اصفر واحمر

والشّنف حلية اعلى الاذن ولعلها مأخوذة من شنفت شنفة الصبي اذا انقلبت الى الاعلى .

والقرط حلية اسفل الاذن ويخال لي انها مأخوذة من القُرطة وهي ان يكون للثوب زغبتان

معلقتان في اذنهِ والاسم متخذٌ من قاربط لحب القمر الهندي كانهم في الاصل شبهوا الدَّمْلة بذلك الحب ثم اطلقوهُ على حلية اسفل الاذن لتعلقهِ بشحمتها كالدَّمْلة

ومن اسماء القرط الرعثة والرَّعَثة وكلتاهما مأخوذتان من الرعثاء للشاة ذات الذنبين او لعنب له حب طويل

واما السوار فارى انهُ مستفادٌ من سار الحائط او تسوّرهُ بمعنى اعتلاه وذلك انهم عادوا فسموا الجدار العالي الذي يبنى لصيانة المدن سورًا فاستفاد لذلك معنى الاحاطة ومنهُ تسمى السوار لما يحيط بالمعصم من الحلى ومثلهُ القلب للسوار غير الملوي بل المفتول طاقًا واحدًا فقد ورد فيهِ انهُ مستعارٌ من قلب النخلة لبياضهِ كأنهُ كان يصنع من مادة قرنية ناصعة البياض كما يُستدل على ذلك من مرادفهِ الوقف على ما مرَّ قبيل هذا

واما الخاتم باسمائهِ فمأخوذ من الختام لنصوص مفاصل الدواب ثم تسمى بهِ الطين المتخذ للختم وفي المادة معنى الكتم قيل ويُدعى خاتم الملك حلقًا والكلمة مستفادة من استدارتهِ

واما حلى العنق فمنها القلادة ومادتها مستعارة من قلد البعير اذا جعل في عنقهِ حبلاً يقاد بهِ وقلد الشيء اذا فتلهُ او لواهُ ومن ذلك اشتق قَلَد الحديدة اذا رققها ولواها وكذلك أُخذ من المادة ذاتها القِلاد وهو اسم خيط طويل من الصفر يُقلد اي يُلوى على البُرَة او خوق القرط اي حلقتهُ واما البُرَة فهي الحَلَقة من صفر او نحاس تكون في انف البعير والحدقة كالقلادة واسمها موضوع لمناسبة الخناق اي الحلق والمرسلة هي القلادة من خرز أو التي تبلغ الصدر والاصل في لفظها الارسال اما للخيل في الاغارة او من استرسال الشعر اذا طال فتدلى

ويلي ذلك حلى الارجل فمنها الخلخال باسمائهِ وقد ورد في تفسيرهِ انهُ الحلية من فضة لارجل اماء العرب وكأنها اخذت من تخلخل من مكانهِ اذا تقلقل كأن الاسم حكاية صوت الخلخال واما الخَدَمة فخلخال من الفضة ايضًا غير انهُ مستفاد من الخدماء وهي الشاة اذا كان عند رسغها بياض في سواد او بالعكس فاشتقت منها الخَدَمة لسير يشد بهِ عند رسغ البعير فتُربط بهِ سرائح النعل فكأنهم سموا خلخال المرأة كذلك تشبيهًا بهِ

وقصارى القول ان الحلى العربيَّة لم تكن في العصر الظُرَري الاَّ قليلة ومعظم المعروف منها من قرون الحيوان وعظامهِ ومن العاج على قلة وكأني بالقوم يومئذٍ يتزينون بالوشم جريًا على عادة سائر اهل الفطرة واستدلالاً بوجود النعل عندهم ولكنهم صاروا بعد ذلك يصطنعون حلاهم من المعدن

ستأتي البقيَّة